الحكمة في وجود المتشابه في القرآن الكريم

الشيخ محمد علي التسخيري

يصرح القرآن الكريم في الآية السابعة من سورة آل عمران بوجود آيات محكمات هن ام الكتاب ، و اخر متشابهات فيقول تعالىٰ :

" هوالذي انزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن ام الكتاب واخر متشابهات فاماالذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة و ابتغاء تأويله و ما يعلم تأويله إلاّاللّه والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا و ما يذكر إلاّ اولوالالباب ".

وقد اختلف المفسرون في المراد من المحكم والمتشابه و ترددت نظرياتهم بين كون التشابه قائماً علىٰ اساس علاقة اللفظ بالمعنىٰ و مدىٰ دلالته و ظهوره فيه و كونه اي التشابه في مجال تطبيق المعنىٰ المفهوم علىٰ مصاديقه و تجسيداته الخارجية فالمتشابه: هو ماحصل تردد في دلالته علىٰ المعنىٰ المراد ـ علىٰ رأي ـ اوما حصل معه التردد في افراد المعنىٰ الذي يدل عليه ـ والمحكم مايقابله .

ولسنا نريد هنا الدخول في مجال عرض الاتجاهات الرئيسة في هذا المجال و ترجيح احدهما علىٰ الآخر .

و انما نقصد ان نتعرض الى مبررات احتواء القرآن الكريم على آيات و الفاظ متشابهة يحصل التردد في فهم تطبيقاتها و هل يتنافى ذلك مع كونه كتاب الهداية العامة للبشرية؟

و سنحاول فيما يلي التعرض الى ماقيل في هذا المجال و توضيحه اولاً ثم نحاول التعقيب على ماذكر إما بالرد أو بالتكميل .

الآراء في هذا المجال :ـ

نستطيع ان نحصر اهم ماقيل في توضيح الحكمة من مجيء كل الآيات المتشابهة او بعضها و ذلك في نقاط كمايلي :

١ـ الامتحان والتربية على الاستسلام والخضوع :

فقد ذكر الشيخ محمد عبده :" ان اللّه سبحانه انزل المتشابه ليمتحن قلوبنا في التصديق به فانه لوكان كل ماورد في الكتاب واضحاً لاشبهة فيه عند احد من الاذكياء ولامن البلداء لما كان في الايمان به شيء من معنى الخضوع لما انزل اللّه تعالى والتسليم لما جاءت به رسله "[1]

ويؤكد هذا بالالتفات الى ماقالته الآية:" والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عندربنا " في حين يتبع الذين في قلوبهم زيغ ماتشابه منه ابتغاء الفتنة" .

وقداكد هذا الرأي صاحب " مناهل العرفان " فقال في مجال تعداد حكم بعض انواع المتشابه :" ثانيتها الابتلاء والاختبار ليؤمن البشر بالغيب ثقة بخبر الصادق ام؟ فالذين اهتدوا يقولون آمنا و ان لم يعرفوا على التعيين والذين في قلوبهم زيغ يكفرون به و هو الحق من ربهم ، و يتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة والخروج من الدين جملة "[2]

و نقل عن السيوطي عن بعضهم انه ذكر فوائد للمتشابه الذي استأثر اللّه بعلمه و منها :" ابتلاء العباد بالوقوف عنده والتوقف فيه والتفويض والتسليم . . . "[3]

ثم قال:ورابعتها اقامة دليل على عجز الانسان و جهالته مهما عظم استعداده و غزر علمه ، و اقامة شاهد على قدرة اللّه الخارقة ، وانه وحده هوالذي احاط بكل شيء علماً وان الخلق جميعاً لايحيطون بشيء من علمه إلاّ بما شاء ، و هنالك يخضع العبد و يخشع و

١ـ تفسير المنار ج٣ ص ١٧٠ .
٢ـ مناهل العرفان ج٢ ص ١٧٨ .
٣ـ نفس المصدر ص ١٩٣ .

يطامن من كبريائه و يخضع "[4].

و مما لاريب فيه ان الامتحان والابتلاء يشكل نوعاً اساساً من انواع تربية الانسان المسلم على ان يتحلى بالصفات التي يريدالله ان تتقوم شخصيته بها واهم هذه الصفات بل الملكات المتأصلة صفة التعبد والاستسلام لله تعالى في كل شيء يثبت انه منه تعالى عرف الحكمة فيه ام لم يعرف ، و قد وضع الاسلام لغرس هذه الملكة في اعماق المسلم برنامجاً واسعاً و اساليب مختلفة يمكن ان يذكر منها مانحن بصدده ، كما يمكن ان يذكر منها اسلوب عرض قصص المستسلمين الاطهار (كابراهيم واسماعيل) و كذلك القصص التي تحكي عن الحكمة الالٰهية الواسعة التي هي فوق ما يتصورالانسان الحبيس في سجن ضعفه و امكانه حتى ولوكان ذلك الانسان موسى (ع) .

و منها نظام العبادات الى غير ذلك مما ليس هنا محل ذكره .

وعليه فيقف الممتحن امام هذه الآيات المتشابهة موقفين تبعاً لمسبقاته وتصوراته واستسلامه فاما الاغترار واتباع الرأي ابتغاء للفتنة واما الاستسلام لله تعالى وارجاع الامر اليه .

٢ـ الدفع نحو التعمق والتوسع الفكري :

و قد ذكر عبده ايضاً ان وجود المتشابه " كان حافزاً للعقل المؤمن الى النظر كيلا يضعف فيموت فان السهل الجلي جداً لاعمل للعقل فيه ، والعقل اعزالقوى الانسانية التي يجب تربيتها ، والدين اعز شيء على الانسان فاذالم يجد العقل مجالاً للبحث في الدين يموت عامل العقل فيه ، و اذامات فيه لايكون حياً بغيره "[5].

وذكرالعلامة الطبرسي ذلك باختصار حيث قال:" فان قيل لِمَ انزل الله تعالى القرآن المتشابه و هلا جعله كله محكماً فالجواب: انه لوجعل جميعه محكماً لاتكل الناس كلهم على الخبر واستغنوا عن النظر . . . "[6].

كما ان الفخر الرازي ذكر ما يقرب من هذاالمعنى حيث قال في هذا الصدد: " باشتمال القرآن على المحكم والمتشابه ، يضطرالناظر فيه الى تحصيل علوم كثيرة مثل اللغة والنحو واصول الفقه مما يعينه على النظر والاستدلال " ثم يقول:" باشتمال القرآن على المحكم والمتشابه يضطر الناظر فيه الى الاستعانة بالادلة العقلية فيتخلص من ظلمة التقليد ، و في ذلك تنويه بشأن العقل والتعويل عليه ، و لوكان كله محكماً لما احتاج الى

٤ـ نفس المصدر ص ١٧٩ .
٥ ـ رشيد رضا تفسيرالمنار ج٣ ص ١٧٠ .
٦ـ مجمع البيان ج٢ ص ٤١٥ .

الدلائل العقلية ، ولظل العقل مهملاً . . . " و اخذ هذاالمعنى الشيخ صبحي الصالح فقال: " لعل اشتمال القرآن على المتشابه و عدم اقتصاره على المحكم وحده ، ان يكون حافزاً للمؤمنين على الاشتغال بالعلوم الكثيرة التي تقودهم على فهم الآيات المتشابهات فيتخلصون من ظلمة التقليد ، و يقرأون القرآن متدبرين خاشعين "[٧].

ولربما عبر عن هذاالمعنى بلسان آخر و هو حصول الثواب باعمال النظر في القرآن الكريم و هو ما قالهالمرحوم الطبرسي من انه"لولا وجود المتشابه لكان لا يحصل لهم ثواب النظر واتعاب الخواطر في استنباط المعاني "[٨].

و قال الفخر الرازي ايضاً:" متى كانت المتشابهات موجودة كان الوصول الى الحق اصعب واشق ، و زيادة المشقة توجب مزيد الثواب ".

كما انه قد يعبر عنه بلسان آخر هو لسان ظهور التفاضل و تفاوت الدرجات العلمية" .

وهذا ماجاء في المجمع حيث يقول:" ولكان لايتبين فضل العلماء على غيرهم "[٩].

و نقل السيوطي عن البعض قوله:" و منها ظهور التفاضل و تفاوت الدرجات ، اذ لو كان كله محكماً لايحتاج الى تأويل و نظر لاستوت منازل الخلق ولم يظهر فضل العالم على غيره "[١٠].

و يرى السيد باقر الحكيم ان نوعاً من المتشابهو هوالذي لايعلم تأويله إلاّاللّه و الراسخون في العلم انما ورد في القرآن الكريم بهذاالاسلوب كبعض المسائل الكونيةوغيرها لينطلق في تدبر حقيقتها و اكتشاف ظلماتها المجهولة "[١١]

هذا

ومما لاريب فيه ان القرآن الكريم اوجد بنزوله مرحلة فكرية جديدة و نقل المجتمع من حضيض التفكير الجامد الضيق الى سمو فكري متفتح و نضج بلغ في مراحله التاليةالى مستوىً فلسفي لاتصله اية فلسفة ومستوىً علمي جوال قادالعالم خلال قرون و مستويات فكرية تشريعية واخلاقية مارأى الكون لها مثيلاً.

يقول الدكتور محمد يوسف موسى:" ان القرآن كان من اهم العوامل التي دفعت المسلمين الى التفلسف ثم بيان مااشتمل عليه من فلسفة ، سواء ما يتعلق منها بالانسان و

٧ـ مباحث في علوم القرآن ص ٢٨٦ .
٨ـ مجمع البيان ج٣ ص ٤١٠ .
٩ـ مجمع البيان ج٢ص ٤١٠ .
١٠ـ المناهل ج٢ ص ١٩٣ .
١١ـ مجلة رسالة الاسلام العدد ٥ ، ٦ السنة الثانية ص ٣٢ .

مايتعلق باللّٰه وصلته جل وعلا بالانسان ، و من الحق ان القرآن قبل كل شيء هو كتاب العقيدة الحقة ، والشريعة الصالحة لكل زمان و مكان و الاخلاق التي لايقوم مجتمع سليم إلاّبها "[12]

ويقول الامام الخوئي :" لانه الكتاب الذي يضمن اصلاح البشر و يتكفل بسعادتهم واسعادهم ، والقرآن مرجع اللغوي و دليل النحوي ، و حجة الفقيه ، و مثل الاديب ، وضالة الحكيم ، و مرشد الواعظ ، و هدف الخلقي ، وعنه تؤخذ علوم الاجتماع والسياسة المدنية وعليه تؤسس علوم الدين ، ومن ارشاداته تكتشف اسرار الكون ، و نواميس التكوين . . . "[13]

ويقول الاستاذ المطهري :" ان الفلاسفة المسلمين استطاعوا بالهام من القرآن الكريم وكلمات الرسول الاكرم (ص) والائمة الاطهار (ع) ان يوجدوا مدرسة فلسفية تعتمد الاستدلال المنطقي المتقن . "[14]

و لعل من اهم عوامل الدفع نحو الفلسفة بالخصوص والتوسع الفكري على العموم وجود هذه الآيات المتشابهة على اختلاف اصعدتها الفلسفية والعلمية والاجتماعية والتي تدفع المسلم المتأمل في القرآن بحكم تطلعه الى فهم معناها ، تدفعه لذلك التوسع .

٣ـ تقريب الامور العميقة الى الافهام :

و يتوضح ملخص ما ذكره العلامة الطباطبائي في هذه الحكمة بمتابعة الخطوات التالية :

اولاً: ان الارتباط باللّٰه تعالى والمعاد و ما الى ذلك من تفصيلات العالم الغيبي امر ضروري للانسان بل هو روح التصور الاسلامي عن الواقع . . . و هذا يستدعي ان يعرف المسلمون القدر الضروري عن نوعية هذه العلاقة .

ثانياً: ان الانسان حبيس ضعفه و تصوراته الخاصة الحسية والعقلية التي توفرت له خلال حياته . . . و مختلف مراتب الناس على ضوء كمية التصورات التي لديهم .

ثالثاً، وعلى ضوء مما سبق ولاجل الكشف عن القدر الضروري لنوعية العلاقة الآنفة لجميع الانسانية فقد اتبع القرآن اسلوب التمثيل والتشبيه ليقرب تلك المعاني العالية الى الاذهان فيقرب الامر المعنوي المجرد الى الاذهان المختلفة عبر ذلك التمثيل بحقائق حسية .

رابعاً: إلاّ ان من الواضح ان الممثل قد لايتوافق مع الممثل به في مختلف الجوانب

١٢ـ القرآن والفلسفة ص ٥ .
١٣ـ البيان في تفسير القرآن ص ٣ .
١٤ـ علل الانحراف نحو المادية ص ١٦٧ طبع مشهد انتشارات طوس .

والخصائص خصوصاً وهما من عالمين مختلفي القوانين والاحكام (عالم المجردات و عالم الماديات) .

وعدم التوافق هذا قد يجر الى محذورين يخالفان الغرض الاساسي لهذاالتمثيل و هوالهداية القرآنية :

ا ــ نقل الخصائص الحسية للمثل به الى الممثل وهذا يعني تغير الحقيقة و انقلاب الغرض.

ب ــ و قد يلتفت الانسان الى الفرق بين الممثل والممثل به فيبداء بعملية تجريدالممثل به من الخصوصيات مما قد يؤثر في تشويه الصورة المطلوب اعطاؤها امابزيادة او نقصان .

خامساً : و تخلصاً من هذه المحاذير يلجاء القرآن الى توزيع المعاني التي يريد اعطاءها الى امثال مختلفة و اعطاءها صيغ مختلفة حتى يفسر بعضها بعضاً و ينتهي الامر الى تصفية عامة تنتج مايلي :

ا ــ ادراك القارئ للقرآن ان هذهالصور هي مجرد امثال لاتعبر عن كل الحقيقة ولاتكسب الواقع العيني كل خصائصها .

ب ــ بجمع هذه الامثال الى بعضها ينفى بكل واحد منها الخصوصيات الحسية الموجودة في المثال الآخر .

كتابخانه مدرسه فيضيه قم

و بذلك تتحقق الهداية القرآنية العامة و يتخلص من نقائص هذا الاسلوب الذي لامفر منه "١٥!

و قد عبر ابن اللبان في كتابه "ردالآيات المتشابهات الى الآيات المحكمات" عن رأي اخص من هذا فقال بتلخيص من صاحب المناهل :

" ليس في الوجود فاعل إلاالله ، وافعال العباد منسوبة الوجود اليه تعالى بلاشريك ولامعين فهي في الحقيقة فعله وله بها عليهم الحجة" لايسأل عما يفعل و هم يسألون ".

و من المعلوم ان افعال العباد لابد فيها من توسط الجوارح مع انها منسوبة اليه تعالى و بذلك يعلم ان لصفاته تعالى في تجلياتها مظهرين : مظهراً عبادياً منسوباً لعباده وهوالصور والجوارح الجثمانية ، و مظهراً حقيقياً منسوباً اليه ، و قد اجرى عليه اسماء المظاهر العبادية المنسوبة لعباده على سبيل التقريب لافهامهم والتأنيس لقلوبهم و لقد نبه تعالى على القسمين ، و انه منزه عن الجوارح في الحالين . فنبه على الاول بقوله :

١٥ــ الميزان ج٣ من ص ٥٨ الى ص ٦٥ .

" قاتلوهم يعذبهم اللّٰه بايديكم " فهذا يفيد ان كل ما يظهر علىٰ ايدي العباد فهو منسوب اليه تعالىٰ ، و نبه علىٰ الثاني بقوله فيما اخبر عنه نبيه (ص) في صحيح مسلم " ولايزال عبدي يتقرب اليّ بالنوافل حتىٰ احبه ، فاذا احببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، و يده التي يبطش بها ، و رجله التي يمشي بها و قد حقق اللّٰه ذلك لنبيه بقوله:" ان الذين يبايعونك انما يبايعون اللّٰه " و بقوله :" و ما رميت اذ رميت ولكن اللّٰه رمىٰ " و بهذا يفهم ماجاء من الجوارح منسوباً اليه تعالىٰ فلايفهم من نسبتها اليه تشبيه ولاتجسيم . ولكن الغرض من ذلك التقريب للافهام والتأنيس للقلوب . . . "[16]

٤ـ اعطاء الكل و التركيز علىٰ البعض :

ذكر الفخر الرازي رأياً يقرب من الرأي السابق فقال:ان القرآن يشتمل علىٰ دعوة الخواص والعوام ، و طبايع العوام تنبو في اكثر الامور عن ادراك الحقائق فمن سمع من العوام في اول الامر اثبات موجود ليس بجسم ولامتحيز ولامشارا اليه ظن ان هذا عدم ونفي محض ، فيقع في التعطيل فكان الاصلح ان يخاطبوا بالفاظ دالة علىٰ بعض ما يناسب ماتخيلوه وماتوهموه ، ويكون ذلك مخلوطاً بمايدل علىٰ الحق الصريح ، فالقسم الاول:و هو الذي يخاطبون به في اول الامر من باب المتشابه .

والقسم الثاني:وهوالذي يكشف عن الحق الصريح هوالمحكم ".

و عبر عنه الشيخ عبده بتعبير آخر فقال :

" ان الانبياء بعثوا الىٰ جميع الاصناف من عامة الناس و خاصتهم و فيهم العالم والجاهل والذكي والبليد ، و هناك من المعاني مالا يمكن التعبير عنه بعبارة تكشف عن حقيقته و تشرح كنهه بحيث يفهمه الجميع علىٰ السواء ، و انما يفهمه الخاصة منهم عن طريق الكناية والتعريض و يؤمر العامة بتفويض الامر فيه الىٰ اللّٰه تعالىٰ والوقوف عند حد المحكم فيكون لكل نصيبه علىٰ قدر استعداده "[17]

و يعلق السيد باقرالحكيم علىٰ هذاالنص بعد رد اشكال العلامة عليه فيقول:(اذا عرفنا دورالمحكم والمتشابه امكننا ان نتصور بسهولة ان بعض المعاني لايدركها إلّا الراسخون في العلم دون العامة خصوصاً المعاني التي ترتبط ببعض المعلومات الكونية الطبيعية كجريان الشمس تجري لمستقر لها) او تلقيح الرياح (و جعلنا الرياح لواقح) او جعل الماء مصدراً للحياة (و جعلنا من الماء كل شيء حي) فان كل هذه المعلومات حين تتكشف لدىٰ العلماء

١٦ـ مناهل العرفان ج٢ ص ١٩٣ـ ١٩٤ .
١٧ـ تفسيرالمنار ج٣ ص ١٧٠ـ ١٧١ .

تكون من المعلومات التي اشار اليها القرآن الكريم و يعرفها الخاصة دون غيرهم) [18].

و مما يؤكده ان الراغب الاصفهاني في مفرداته ذكر ان من المتشابه ما " يجوز ان يختص بمعرفة حقيقته بعض الراسخين في العلم ويخفىٰ علىٰ من دونهم و هو الضرب المشار اليه بقوله عليه السلام في علي رضي اللّٰه عنه: "اللهم فقهه في الدين و علمه التأويل " [19].

فتكون بعض الايات متوجهة الىٰ القادة الفكريين بالخصوص علىٰ اساس انهم سيعرفون الواقع المراد بالتفصيل للامة ككل.

و لعله الىٰ مثل هذا الرأي يشير الزرقاني فيقول: في مجال تعداد الحكم من وجود المتشابه" (اولاها) رحمة اللّٰه بهذا الانسان الذي لايطيق معرفة كل شيء ، و اذا كان الجبل حين تجلىٰ له ربه جعله دكاً و خر موسىٰ صعقاً فكيف لو تجلىٰ سبحانه بذاته وحقائق صفاته للانسان؟ و من هذا القبيل اخفىٰ اللّٰه علىٰ الناس معرفة الساعة رحمة بهم كيلا يتكاسلوا ويقعدوا عن الاستعداد لها ، و كيلا يفتك بهم الخوف والهلع لو أدركوا بالتحديد شدة قربها منهم و لمثل هذا حجب اللّٰه عن العباد معرفة آجالهم ، ليعيشوا في بحبوحة من اعمارهم "[20].

و واضح ان هذا النص غير دقيق في تعبيره وإلاّ فلامعنىٰ لتصور امكان تجلي اللّٰه تعالىٰ بذاته و حقائق صفاته و انما يقصد ان النفس والتصور الانساني يكل غالباً عن تصور اقصىٰ ما يمكن تصوره في الساحة الالٰهية.

كما ان من الواضح انه يجمع الىٰ صف هذه الحكمة (حكمة اعطاء الناس علىٰ قدر امكاناتهم) حكمة بث الامن والامل باخفاء بعض الامور عنهم جامعاً الحكمتين تحت عنوان رحمة اللّٰه بالانسانية.

٥ ـ تحقيق بعض جوانب الاعجاز:

فان في هذا التشابه بعض ضروب الاعجاز ففيه الاعجاز البلاغي حيث يقول الزرقاني :

" لان كل ما استتبع فيه شيئاً من الخفاء المؤدي الىٰ التشابه ، له مدخل عظيم في بلاغته و بلوغه الطرق الاعلىٰ في البيان ، و لو اخذنا في شرح هذا لضاق بنا المقام ، و خرجنا جملة من هذا الميدان ، الىٰ ميدان علوم البلاغة و ماحوت من خواطر و اسرار ،

١٨ـ رسالة الاسلام العددان ٥،٤ السنة الثانية صفحة ٢٨ .
١٩ـ غريب القرآن ص ٢٥٥.
٢٠ـ مناهل العرفان ج٢ ص ١٧٨ .

للايجاز والاطناب والمساواة..."[21]

و فيه الاعجاز العلمي حيث تنكشف علىٰ الزمن حقيقة ما رمىٰ اليه القرآن من الآيات التي تشكل نوعاً متشابهاً لدىٰ من لم يكونوا مطلعين علىٰ حقيقتها في حين يكشف العلم عن الواقع بعد قرون مما يؤكد النسب السماوي للقرآن.

و كذا يمكن ادخال بعض الآيات المخبرة بالغيب ـ و ان كان ذلك يحوي نوعاً من الاشكال.

٦ـ القرآن دستوريحوي بعض الاجمال ولايمكن التفصيل فيه:

و يقصد بهذا ان يقال: ان القرآن لو اراد ان يبين كل جوانب الحقيقة و يعين المصاديق الصحيحة و ينفي الباطل منها لكان ذلك يستدعي مجلدات ضخمة ولم يكن من الممكن انزاله علىٰ ذلك النمط.

و يتوضح هذا عند ملاحظة قصر فترة حياة الرسول (ص) و انشغاله بالمشاكل الهائلة، و عدم قدرة المسلمين علىٰ استيعاب تلك المجلدات الضخمة، و حفظها من الضياع وامثاله.

و لهذا يشير الزرقاني ـ بنوع من الاجمال ـ فيقول:

" ثانيتها: تيسير حفظ القرآن و المحافظة عليه، لان كل ما احتواه من تلك الوجوه المستلزمة للخفاء، دال علىٰ معان كثيرة زائدة علىٰ ما يستفاد من اصل الكلام و لو عبر عن هذه المعاني الثانوية الكثيرة بالفاظ، لخرج القرآن في مجلدات واسعة ضخمة، يتعذر معها حفظه والمحافظة عليه " قل لوكان البحر مداداً لكلمات ربي لنفدالبحر قبل ان تنفد كلمات ربي، و لوجئنا بمثله مدداً "[22]!

٧ـ التعبير العام الذي لاينفر المذاهب عنه:

و يقول الفخرالرازي في تقريب هذا الوجه انه (لوكان ـ اي القرآن ـ كله محكماً بالكلية، لماكان مطابقاً إلاّ لمذهب واحد، و كان بصريحه مبطلاً لجميع المذاهب المخالفة و ذلك منفرلارباب المذاهب الاخرىٰ عن النظر فيه، اما وجودالمتشابه والمحكم فيطمع فيه كل مذهب ان يجد فيه كل مايؤيد مذهبه، فيضطر الىٰ النظر فيه، و قد يتخلص المبطل من باطله اذا امعن فيه النظر فيصل الىٰ الحق).

ملاحظات حول الوجوه السابقة:

٢١ـ مناهل العرفان ج٢ ص ١٨٥.
٢٢ـ المناهل ج٢ص ١٨١.

الملاحظة الاولىٰ :

هي انه يلزمنا ان نلحظ هذه الوجوه كلها أوأكثرها ـ لوتمت في نفسها ـ ونعتبرها رداً علىٰ سؤال : لِمَ ورد المتشابه في القرآن الكريم ؟ .

و ذلك لان البعض منها انما يصح في بعض الآيات المتشابهة دون غيرها ـ و قد التفت الىٰ هذه النقطة بعض الباحثين .

الملاحظة الثانية :

ان بعض الوجوه السابقة لايمكن المساعدة عليه ، و خصوصاً الوجه الاخير ، فان القرآن هو الفارق بين الحق والباطل و هو المقياس الحق ولايمكن لهذا المقياس ان يكون عاماً مضللاً يمكن كلاً من تصحيح مذهبه والتمسك به ضدالآخرين .

وكذا بالنسبة للوجه الخامس في قسمه البلاغي ، فان البلاغة تركز اول ما تركز علىٰ ايصال المعنىٰ بالدقة وباطار لفظي جميل الىٰ السامع ، اما الابهام و التشابه فقد يتنافىٰ والغرض البلاغي اللهم إلاّ اذا كان هناك غرض آخر يستدعيه . . . فلا يمكن ان يكون التشابه معللاً بانه ضرب من ضروب البلاغة او ناتج لها .

الملاحظة الثالثة :

ان اكثر ماورد من وجوه قد تعتبر تبريرات لما وقع و لذا فان روح المسألة تتركز في الحكم الثلاث (الثالثة ، والرابعة ، والسادسة) والتي يمكن جمعها تحت عنوان : " عدم امكان خلو القرآن من المتشابه " و ذلك بعد ملاحظة دور القرآن كموضح لاعمق الحقائق ، وكدستور عام ، و كهاد يمنح كلاً بمقدار ما يستطيع تقبله .

هذا هو روح الجواب و ما ذكر من وجوه اخرىٰ فهي ترتبط به و تدور حوله .

الملاحظة الرابعة :

ان اهم اشكال يمكن ان يورد علىٰ وجود المتشابه يلخص في تعبيرين :

الاول : ان القرآن الكريم ، هدىً ، و نور ، و ذكر ، وفرقان و حكيم ، و ما شابه ذلك في حين ان التشابه لاينسجم مع هذه الصفات لانه يوقع الانسان في حيرة من معرفة الحقيقة و ربما كان بعض مافيه لايمكن معرفته مطلقاً .

الثاني : ماذكره الفخرالرازي من ان وجود المتشابه في القرآن كان سبباً لاختلاف المذاهب والآراء و تمسك كل واحد منها بشيء من القرآن بالشكل الذي ينسجم

مع مذهبهم و نضيف على هذا فنقول :

ان بعض الآيات التي يشير اليها المستشكلون قد تجعل ـ بل جعلت ـ ذريعة للتمسك بعقائد تتناقض تمام التناقض مع العقيدة الالٰهية بل تقضي عليها من الاساس و هذا يعني نقض الغرض الذي جاءت من اجله الرسالة. . . و هذا من مثل عقيدة التجسيم الذي يساوق تقديم صورة هزيلة عن اللّٰه تعالىٰ مما ينتهي الىٰ انكاره في الواقع و كذا من مثل عقيدة الجبر التي تنفي المسؤولية الاخلاقية و توجد مشاكل كبرىٰ ، و عقيدة نفي العصمة عن الانبياء التي تنتهي الىٰ التشكيك في اقوالهم وغيرذلك .

و عليه فان هذا الاشكال ـ بهذين التعبيرين ـ لايمكن ان يدفع بهذه الوجوه التي مهما تصاعدت قيمتها فانها قدلاتعادل هذا الخسران الاساسي الكبير الذي يجر الامة الىٰ الضياع والتمزق ويقضي علىٰ العقيدة و يفقد القرآن ـ والعياذ باللّٰه ـ صفته الهادية ـ أو ان يقال بتعادل الربح والخسران .

و هذا يدعونا لان نتطلب وجود ما يعصم الامة من التفرق والتمزق والعقيدة من الانقلاب علىٰ اهدافها فما هو هذا المرجع الذي يجب الرجوع اليه؟

ما يبدو من الآية والروايات الشريفة امران هما :

أ ـ الآيات المحكمات: و يفهم الارجاع اليها من جعلها أُمّاً للكتاب ، و الأُمية لاريب تعني المرجعية فهي التي تنفي ادخال صور باطلة في تصور الانسان عن الآية او ادخال مصاديق باطلة للمفهوم منها ، و يحتاج هذا الىٰ رسوخ علمي في نفسه. . . و يبقىٰ مجال كبير للتشابه خصوصاً لاؤلئك الذين في قلوبهم مرض ليغروا به الآخرين .

ب ـ الراسخون في العلم :

و هم المرجع الثاني والاكثر عمومية لحل التشابه ، فهم الذين يفسرون الدستور الالٰهي ، و يعطون تفصيلاته ولهم يرجع في الفصل بين الحق والباطل ، فهم محور وحدة الامة وملجأ العلم و منتهىٰ السبلء ولكن من هم هؤلاء الراسخون في العلم ؟ ان الروايات المتواترة معنىً عن النبي (ص) لتركز بصورة عامة علىٰ مرجعية النبي (ص) واهل البيت للامة في كل ما يبدولها من غموض في كل شيء و من جوانب الغموض هذا التشابه الذي يلاحظ في بعض الآيات القرآنية و اهم هذه الاحاديث حديث الثقلين الذي سلمت به الفرق الاسلامية و الذي اكد علىٰ اقتران العترة بالكتاب وعلىٰ لزوم التمسك بها معاً و ان الرجوع اليها معاً عاصم من الضلال و انها لن يفترقا الىٰ يوم القيامة و هكذا الاحاديث النبوية المختلفة في علم الامام (ع) مثل حديث انا مدينة العلم و عليٌّ بابها و قد أكد أهل البيت

على مرجعيتهم في كل الامور فهذا نهج البلاغة يصفهم بانهم موضع سر النبي ، و لجأ امره ، و انهم اساس الدين وعماداليقين اليهم يفيء الغالي ، و بهم يلحق التالي ، و هم ازمة الحق ، و اعلام الدين ، وألسنة الصدق ، و هم كمثل نجوم السماء اذا خوى نجم طلع نجم ، و هم شجرة النبوة و محط الرسالة ، و مختلف الملائكة ، و معادن العلم ، و ينابيع الحكم و عندهم ابواب الحكم و ضياء الامر ، و ان نطقوا صدقوا ، و ان صمتوا لم يسبقوا ، وهم عيش العلم و موت الجهل و ان بهم عادالحق الى نصابه ، و انزاح الباطل عن مقامه [٢٣].

و يقول الامام في نص رائع يعين المرجع في الشبهة " فلاتنفروا من الحق نفار الصحيح من الاجرب ، والبارئ من ذي السقم ، واعلموا انكم لن تعرفوا الحق حتى تعرفوا الذي تركه ، ولن تأخذوا بميثاق الكتاب حتى تعرفوا الذي نقضه ، ولن تمسكوا به حتى تعرفوا الذي نبذه فالتمسوا ذلك من عند اهله فانهم عيش العلم و موت الجهل . هم الذين يخبركم حكمهم عن علمهم و صحتهم عن منطقهم و ظاهرهم عن باطنهم لايخالفون الدين ولايختلفون فيه ، فهو بينهم شاهد صادق ، و صامت ناطق "[٢٤].

و جاءت روايات اهل البيت (ع) لتؤكد هذاالمعنى فهناك ابواب عديدة في اهم المصادر الشيعية و منها الكافي في ان الارض لاتخلو من حجة و هم الحجة ، و انهم شهداء الله عزوجل على خلقه وانهم الهداة ، و انهم ولاة امرالله و خزنة علمه ، و نوراللّه ، و انهم وراث الكتاب ، و انهم يعلمون علمه كله الى غير ذلك من الاوصاف العظمى التي ذكروها لنا للامام (ع) وهم الصادقون المصدقون .

ويزدادالتركيز على مرجعيتهم (ع) لذلك عند ما تأتي الاحاديث المصرحة بانهم هم الراسخون في العلم دون غيرهم فقد جاء في كلام للامام اميرالمؤمنين (ع) متحدياً اولئك الذين ادعواالعلم والمرجعية فقال :

" اين الذين زعموا انهم الراسخون في العلم دوننا كذباً و بغياً علينا ، ان رفعنا الله و وضعهم واعطانا وحرمهم ، وادخلنا واخرجهم بنا يستعطى الهدى ، و يستجلى العمى ان الائمة من قريش غرسوا في هذا البطن من هاشم لاتصلح على سواهم "[٢٥].

و عن ابي بصير عن ابي عبدالله (ع) قال: نحن الراسخون في العلم و نحن نعلم تأويله [٢٦].

وعن بريدبن معاوية عن احدهما في قول الله عزوجل " و ما يعلم تأويله إلاّ الله

٢٣ـ راجع ص ٧٣٣ نهج البلاغة ـ صبحي الصالح .
٢٤ـ نهج البلاغة ص ٢٥٦ .
٢٥ـ نهج البلاغة ص ٢٠١
٢٦ـ ٧٦، ٧٧، ٧٨ـ الكافي الجزء الاول ص ٢١٣

والراسخون في العلم " ٢٧ فرسول اللّٰه (ص) افضل الراسخين في العلم ، قد علّمه اللّٰه عزوجل جميع ماانزل عليه من التنزيل والتأويل وما كان اللّٰه لينزل عليه شيئاً لم يعلمه تأويله ، واوصياؤه من بعده يعلمونه كله ، والذين لايعلمون تأويله اذا قال العالم فيهم بعلم فاجابهم اللّٰه بقوله: " يقولون آمنا به كل من عند ربنا " والقرآن خاص و عام و محكم و متشابه و ناسخ و منسوخ ، فالراسخون في العلم يعلمونه[٢٨].

و عن عبدالرحمٰن بن كثير عن ابي عبداللّٰه (ع) قال: الراسخون في العلم اميرالمؤمنين والائمة من بعده (ع) .

و هكذا نعرف: ان الوجوه الصحيحة من الحكمة اذا لوحظت في جو من المرجعية الفكرية للرسول (ص) واهل البيت (ع) شكلت حكماً حياً ولم تعدأية شبهة في اداء المتشابه الىٰ التفرق المذهبي العقائدي . .

هذا ولا معنىٰ لان ينقض علينا بانه ان كان الامر كما تقولون فلم هذا التفرق و التمزق ؟ . و ذلك لانه لما كانت الآيات القرآنية الكريمة والاحاديث الشريفة قدأدت دورها الكامل الواضح في الارجاع نحو اهل البيت (ع) لم يعد هناك سبب من طرف الشارع المقدس يدعو الىٰ التفرق والتمزق بل عبئت كل الطاقات و اريد لكل هذه الحكم و غيرها من اهداف القرآن ان تؤدي دورها المطلوب في ظل المرجعية الفكرية والسياسية لهم (ع) . . . فاذا وجدنا التفرق بعد ذلك فهو من ذنب المتفرقين . . .

فان عادوا واعترضوا علينا بان وجود المتشابه قد مكن لهم بعض الشيء تأييد عقائدهم الباطلة عدنا وقلنا ان هذا يشبه التمسك بقول لاحد المتكلمين دون ملاحظة القول المفسر الذي تبعه لالشيء إلاّ عن زيغ و مرض في القلب . . . فهذا امر لايمكن التخلص منه و هنا يكون الامتحان والبلاء ليمحص الذين يرجعون للقرآن بموضوعية ممن يبتغون الفتنة و يبتغون تأويله دون الرجوع الىٰ المرجع المفروض .

و اخيراً فاننا يمكن ان نضيف الىٰ تلك الحكم المذكورة نفس هذا الاطار العام الذي تعمل في ظله تلك الحكم ونعني بذلك ان وجود المتشابه في القرآن يؤدي بالتبع للاتجاه نحوالقادة للاستزادة والاستيضاح عن تفاصيل ذلك الدستور الالٰهي الخالد .

فتكون النتيجة ملخصة في مايلي :

١ــ ان اكثر تلك الحكم المذكورة اذا جمعت الىٰ بعضها شكلت امراً يعتمد عليه و حكمة جيدة لمجيء المتشابه إلا ان الاشكال الذي يورد علىٰ ذلك لايمكن رده بتلك الحكمة إلا في اطار جعل المرجع الذي يرفع الخلاف .

البقية في صفحة ٥٦

ذكره في الاحاديث والروايات السنة والتي تنص على ان الرسول اظهر معاجز غير القرآن اكثر من ان تحصى .

و قد جمعها و احصاها علماء الحديث و دونوها في كتب و مؤلفات خاصة فراجع .

على ان احاديث المسلمين حول معاجز نبي الاسلام ـ ص ـ تمتاز على روايات اليهود و النصارى حول معاجز انبيائهم من ناحيتين :

الاولى/ قصر المسافة الزمنية بيننا و بين حوادث العهد النبوي . . . و طولها بيننا و بين حوادث عهدي النبيين موسى و عيسى ـ ع ـ و غيرهما . و في هذا ما يوجب الاطمئنان الى روايات المسلمين دون العكس .

الثانية/ تواتر الروايات الاسلامية حول معاجز نبينا الكريم ـ ص ـ و قلتها وعدم تواترها في الجانب الآخر . خاصة اذا عرفنا بان الروايات التي ينقلها اليهود اوالنصارى حول معاجز انبيائهم تنتهي الى افراد قلائل و معدودين .

هذا بعض ما يمكن التحدث عنه ـ هنا ـ حول معاجز رسول الاسلام غير القرآن الكريم : معجزته الخالدة .

و تبقى هناك بعض النقاط نرجئ الحديث عنها الى مقالة قادمة باذن الله . . .

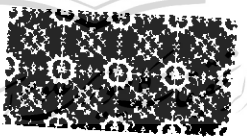

بقية صفحة ٤٣

٢ـ ان ذلك المرجع هوالآيات المحكمات والراسخون في العلم .

٣ـ ان الراسخين في العلم هم النبي (ص) والقادة من اهل البيت (ع)

نسأل الله للجميع الهدى والصواب .